إشكاليات تحديد مفهوم مجتمع الإعلام

د.أحمد عبدلي
جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة

ملخص:

تعالج هذه الورقة الإشكاليات المرتبطة بمفهوم "مجتمع الاعلام " وما يحيل اليه من دلالات سوسيولوجية وثقافية وسياسية وتقنية ،اذ غالبا ما يقدم على انه مفهوم ناجز بصرف النظر والنقاش عن طبيعته وما ماهيته، ويكشف التحليل المعمق عن اتجاهات متداخلة وأحيانا متباينة عند محاولة ضبط صريح الدلالة، بدء من تعددية المسميات وتنوعها، النظرة الطوباوية، إلى النظرة التقنية والإدارية... الى غيرها من اتجاهات التعريف، التي نحاول استعراضها في هذه المقالة.

Résumé

On peut Lore d'une essai de définition de «***société de l'information***» découvrez qu'il n'ya pas de coïncidence entre les déférentes courantes ; académique ou administrative، ou même dans le discoure informationnelle….

La présent article et un essai d'examine les notions qu'il porte ce concept.et les déférentes signification sociologique et culturel et technique qu'il apporte.

مقدمـــة:

تكاد تجمع الأبحاث والخطابات المتمحورة حول أفاق "عصر المعلوماتية" أنها ستعيد هندسة حياتنا الفردية والجمعية،من خلال طرز حياة جديدة ومختلفة يمتزج فيها "الواقعي بالافتراضي"، ،و"التقني بالاجتماعي"، وأنماط سلوكية جديدة وأذواق وقوالب فكرية ولغوية وصلات وروابط اجتماعية عابرة للحدود الثقافية التقليدية ،ومفاهيم جديدة للزمان والمكان والإنتاج إذ، وهي كلها « سوف تنتج وتحدد شكل وماهية المجتمعات و كذا فلسفة الحياة والحضارة الجديد» ، ومثلما أفرزت الثورة الصناعية شكل مجتمعها الجماهيري ،فان ثورة المعلوماتية أنتجت بدورها خصائص وسمات لمجتمعها الموسوم بمجتمع المعلومات.

غير أن هذه الخطابات والنظريات كثيرا ما تتجاوز بعض التساؤلات المهمة حول شكل وماهية هذا المجتمع؟ المستفيدون والمتضررون منه؟ وبعض اشتراطاته التكوينية الأساسية وعير من التساؤلات التي لا يعيرها الخطاب الأكاديمي والسياسي والإعلامي أية اهتمامات إلا فيما ندر من الأبحاث، لصالح خطابات بعضها طوباوي ذو مرجعية سياسية أنية وإعلامية تسويقية، وتحاول هذه الورقة البحث في أصول هذه الخطابات ونقدها.

1-مسارات التحول: مقدمات الثورة الثالثة

في الوقت الذي كان فيه "نيكيتا خروتشيف" Nikita Sergeyevich Khrushchev ،واثقا من تفوق الاشتراكية وقدرات السوفيت إلى الحد الذي جعله يصرح قائلاً: "سوف نقبركم" عام 1956، كان لا يدري أن الأخر(الو م أ) الموعود بالقبر يتهيأ لدخول عصر جديد و حضارة جديدة، «فقد كان ذلك العام الأول الذي لوحظ فيه أن أصحاب القبعات البيضاء ومستخدمي الخدمات، أصبحوا أكثر عدداً من القبعات الزرقاء وعمال المعامل في الولايات المتحدة. كانت تلك أول علامة على تراجع الاقتصاد المصنعي للموجة الثانية، وبداية نشوء الموجة الثالثة» ((1))، بعد كل من الموجة الزراعية التي دامت ردحا طويلا من الزمن (حوالي 5000 سنة)، ثم تلتها

(1)- الفين وهيدي توفلر،**انشاء حضارة جديدة سياسة الموجة الثالثة** ،ت، حافظ الجمالي، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997،ص39

لاحقا الموجة الثانية عصر التصنيع ابتدءا من القرن الثامن عشر وقد استمرت حوالي (200 سنة)، شهدت الإنسانية تغيرات هائلة ؛ في الاقتصاد حيث اعتمد فيها الإنسان على الآلة و سلاسل التركيب chains de montage، وفي الاجتماع حيث أعيد تنظيم المجتمع على أسس وقواعد جديد تستند إلى تقسيم العمل والثروة والسلطة، وفي المجال الثقافي وبفعل تنامي وسائل الإعلام والاتصال وتحولها إلى مؤسسات ذات قاعدة اقتصادية سمح بتصنيع الثقافة وتسليعها وهو ما تعكسه الثقافة الجماهيرية،من خلال الترويج للأفكار والاتجاهات والسلوكيات والأذواق والموضة...الخ

أما الثورة الثالثة فهي ثورة المعلوماتية أو الانفوميديا Info-media،فقد« بدأت ملامحها منذ الستينات ،وعلى الرغم من قصر عمرها مقارنة بسابقتيها فإنها تشهد موجات داخلية من التطور والأجيال، الذي يجعل من الصعب التنبؤ بطبيعة مستقبلها وشكله بل إن سرعة تغيرها وكثافتها شكل صدمة في الخمسينات والستينات» ((1))، تعد الأتمتة والرقمنة السمة الأساسية لها ،حيث تسمح بتحويل المعلومات إلى سلع وخدمات، تسوق في اقتصاد رمزي مبني على المعرفة والشبكية، كما نشهد أشكالا جديدة من التواصل الاجتماعي المباشر بين الأشخاص و الجماعات، وأنماط أخرى للعمل عن بعد والتعليم ،ونشر المعرفة، وتجاوز الحدود السياسية التقليدية، والرقابة والمنع من خلال الديمقراطية الجديدة أيضا، وببساطة سنشهد تغيرات عميقة في طرق التفكير واليات الانجاز على نحو مختلف مما ألفناه، وهذا بفضل اندماج واسع لوسائل الإعلام وشبكات الاتصال وتزايد التطبيقات التقنية التي تنتج المزيد من السلوكيات الاجتماعية .

2-**مجتمع المعلومات** La Société de L'information

أ- جدليات المفهوم

يتميز هذا المفهوم ،« بكثافة اصطلاحية» ((2))مفرطة ؛ "مجتمع المعلومات" Société de l'information،" مجتمع الشبكة" Société en réseaux

(1)- فرانك كيلش ،«ثورة الانفوميديا الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك»، **عالم المعرفة** العدد253 ،يناير2000 ،ص12

(2)-رابح الصادق ،**في البحث عن فاعلية معرفية لمفهوم مجتمع المعلومات**، [مرجع من الانترنت]،2008،انظر الرابط -www.sharjah.ac.ae/.../Abstracts%20 %20Arabic%20-%20saddek%20Rabah.pdf

،"مجتمع ما بعد الصناعة" Post industriel، مجتمع المعرفة، وهي تشير إلى : « المجتمع الذي يعتمد على المعلومات كمادة أساسية للقيام بمختلف الأنشطة الاقتصادية والعمليات الاجتماعية والثقافية والتقنية» ((1)) ،ومن المفارقات أن يتميز هذا المفهوم بغياب أي إجراء نقدي حول، ماهيته البنيوية والفلسفية والوظيفية ومدى أهليته الدلالية، وطبيعة الظروف التي أفرزته ؟ ولذلك فهو «بمثابة عبارة تركيبة مفروضة Syntagme،اكتسبت طابع البديهية دون أن يأخذ الناس حقهم في نقاشها على حد تعبير دانيال بل Daniel Bell، وقد تسرب المفهوم إلى لغتنا اليومية المتداولة والى تقارير وسائل الإعلام ،ومشاريع الساسة، وخطابات الأكاديميين وفق تمثلات وتصورات بعضها مبهم، وبعضها طوباوي،، لكنها تلتقي حول فكرة كونه مجتمعا ناجزا ونمطيا جاهزا ولا مناص منه» ((2))، إن التدقيق النقدي التفكيكي لهذا المفهوم يحيلنا على أربع قضايا أساسية يتكشف من خلالها ما ينطوي عليه من إشكالات وجدليات وأبعاد:

أولا:حول البنية الاصطلاحية ودلالتها

يتألف المفهوم من عبارتين "مجتمع " و "المعلومات " على شاكلة "المجتمع الزراعي" ،"المجتمع الصناعي"، وإذا كان مفهوما مصطلح "مجتمع" ،ومصطلح"المعلومات" كبنى مستقلة فان تركيبهما، يشوبه الكثير من الضبابية التي تشوب" المعلومات" «وتعمق الاتجاه الذي ينظر إلى المعلومة كمصطلح ذي طابع إحصائي يحصرها في طابعها التقني، وهكذا سيتركز مفهوم أدواتي خالص لمفهوم مجتمع المعلومات» ((3))،وقد ساهمت أعمال أرمان ماتلار Armand Mattelartالمختلفة، وكذا ثلاثية مانويل كاستلز Castells.M عن "مجتمع الشبكة"، كما ساهمت "الرواية التكنولوجية" في ترسيخ التمثل التقني الخالص لهذا المجتمع .

ثانيا:الأصول التاريخية السياقات الثقافية للمفهوم

---

(1)-Bernard ,Miege,« **L'imposition d'un syntagme :la société de l'information**», **tic et société** ,№2 ,2008 [on line] refe de 2009 , disponible sur http://revues.mshparisnord.org/ticsociete/index.

(2)- ibid.

(3)_الصادق الحمامي ،« المساءلة النظرية لمفهوم مجتمع المعلومات »، **الإذاعات العربية**، العدد (3) ،2005 ،ص13

ترجع الاستخدامات الأولى لهذا المصطلح إلى نهاية السبعينات وبداية الثمانيات، وهو ما يمكن أن نعتبره بمثابة الاستعدادات الثقافية والفكرية أو إرهاصات ما قبل الثورة، ويمكن تقسيم الأعمال التي تناولته إلى ثلاثة اتجاهات متوازية ومتعاضدة بالرغم من تباعد مجالاتها :

_الاتجاه الأول وتمثله الطوباوية التقنية

التي عكستها الرواية التكنولوجية أو ما يعرف ب cyberpunk ،حيث البادئةcyber تعني في اللاتينية" يتحكم في" ،أو" يسيطر على ،"ثم جرى تحويرها لتدل على التحكم في الأنظمة التكنولوجية المتطورة (Cybernitique)،وتحيل أيضا إلى (Cyborg) التي تدل على نوع من الدمج التركيبي فيما بين الخبرة البشرية والآلة، أماpunk فتشير إلى حركة "الروك" التي انتشرت في أوساط الطبقات المهمشة ،«المشبعة بالرفض للقيم الاجتماعية خصوصا الأوامرية وتستعيض عنها بقيم أخرى قوامها العنف والجنس والثورة ،وتحيل الكلمتان معا إلى مزاوجة دلالية بين الثقافة الجانبية للتكنولوجيا المتطورة والثقافة الهامشية للشوارع الخفية ...وهو خطاب يجمع ما بين ما هو إنساني معارض وبين ما هو تكنولوجي مشاغب» ((1))، ازدهرت روايات الخيال العلمي الكلاسيكي، أو كما يسماها ليسيان سفازLucien sfez" السردية الطوباوية"((2)) أو الأساطير المؤسسة لمجتمع الإعلام ،الحالمة بمشروع "المجتمع الجديد " حيث «الوعود بعالم أفضل وحياة جديدة مع نهاية الخمسينات ،حيث تلقف أدباء الأربعينات والخمسينات أو كما يحلو للبعض تسميتهم "بأنبياء الانترنت"،الإشارات التي بدأت تلوح بها المعلوماتية، لينسجوا منها نماذج وصور لما ستكون عليه والمجتمعات التي تعتمد الشبكات الواسعة .

الاتجاه الثاني ويمثله الخطاب الأكاديمي

ويشير إلى بدايات ظهور المصطلح في أدبيات الأكاديميين وعلماء المستقبليات، بالتوازي مع موجة "الطوباويات التقنية" ،ظهرت مؤلفات سوسيولوجية تحاول التوصيف والتنبؤ بالثورة الجديدة وتحديد

(1) عبدالله محمد الغذامي ،**النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية** ،ط2، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ،2005 ،ص30

(2)-Philippe berton**, Le culte d´internet une menace pour le lien social**? alger :casbah edition,2004,p89

ملامحها،« غلب عليها الطابع التأملي التنظيري اختلط فيها النقد بالتمجيد رسمت أفاقا مستقبلية جديدة» ((1))، شكلت أعمال مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan عن القرية الكونية ومجرة غوتنبرغ Galaxy Gutenberg (1962) أولى الرؤى الجريئة التي قدمت العالم الجديد على انه قرية مترابطة بواسطة الإعلام والاتصال، كما تحدث الاقتصادي الأمريكي فريتز ماشليب Fritz Machlip عن تقسيم المعرفة في المجتمع الجديد في مؤلفه إنتاج و توزيع المعرفة (1962)، وحاول الفيلسوف الفرنسي "ألان تورين" Alan Matheson Turing (1969) رسم الحدود الفاصلة بين الحداثة وما بعد الحداثة، أو ما بعد الصناعة ،وأشار "دانيال بال" (1973) في كتابه« the Coming of Indus in social for casting trail society venture »، إلى أن البشرية تشهد تحولا عميقا من خلال التوجه نحو الاعتماد على المعلومات والمعرفة في المجتمع والاقتصاد ،إنتاجها وإدارتها وبثها وتوزيعها، ولاحقا وضع "ألفين وهايدي توفلر "Alvin & Heidi Toffler ،«صدمة المستقبل Le choc du future »عند نشره عام (عام 1970)، الأوساط الإعلامية والأكاديمية والسياسية في الصورة الحقيقية للتحولات العميقة تمس المجتمعات الصناعية ،ثم جاء كتابهما اللاحق ،«إنشاء حضارة جديدة سياسة الموجة الثالثة» ،وفيه عرضا الخطوط الرئيسية لعمليات التغير الهائلة التي ستحدثها المعلوماتية في حياة البشرية اقتصادا وثقافة واجتماعا، وقد لقي صدى وتجاوبا من القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية، كما أثرى اليابانيون النقاش من خلال أعمال عالم المستقبليات "يونج ماسودا"Young.M" (1981)، وتشكل أعمال الاسباني "مانويل كاستلز" ،Castells.M سبرا مهما في أغوار هذا المجتمع ،تجسد في ثلاثيته حول "عصر المعلومات"(1433 صفحة) والتي بدأها ب« مجتمع الشبكة» حيث يرى أن: « المعلومات تمثل فيه دورا بنيويا كبراديغم محدد يتميز بأربع خصائص :إمكانية التعامل مع المعلومات والتفاعل معها ،شمولية

(1)-رابح الصادق، **مجتمع المعلومات في البحث عن فاعلية معرفية للمفهوم** ،مرجع من الانترنت سبق ذكره

التأثير، المنطق الشبكي، المرونة التي تسمح بإعادة تشكيل المجتمع والمؤسسات الاجتماعية» ((1)) .

ثالثا -الخطابات والوعود ،إيديولوجيا مجتمع المعلومات

تخفي هذه الوعود وراءها الكثير من الإشكالات والجدليات أو "الوهم" و"التوهيم" والمغالطات، من خلال القفز على الحقائق والصيرورات التاريخية، واقتصارها على رؤية واشترطات تكوينية أحادية غربية المضمون تلغي الأخر من مسار التأسيس بحكم موقعه الاستهلاكي، ولذا فقد وجهت الكثير من الانتقادات البنيوية والوظيفية لمقولات وخطابات مجتمع الإعلام بهدف تعرية حقائقه ومنها:

-معظم مقولات مجتمع الإعلام أحادية الرؤية: تستثني وتقصي السياقات الثقافية الأخرى المصاحبة لعملية التحول ،حيث تتبنى المتغير "التقني الاتصالي" كعامل أساسي له، وقد انشغلت الفلسفة الغربية بمعالجة هذا التحول وبحث تداعياته ومضامينه، وقد يكون ذلك صحيحا نسبيا في حال المجتمعات المتقدمة بالنظر إلى كونها المنشأ الذي وصل فيه التنظيم العام إلى الحد الذي يفرز ثورة جديدة، فهو انتقال طبيعي إلى حد مابين الموجات، لكن ما هي النتائج الاجتماعية والثقافية جراء التداخل غير البنيوي بين الموجات الثلاث داخل المجتمعات العالم الثالثية ؟وهل تكفي المقاييس والمؤشرات التقنية (الارتباط بالانترنت ،شبكات الهاتف ،الحاسبات،،،) للنفاذ إلي مجتمع المعلومات والاستفادة من نفس مزاياه، أو حتى الادعاء بالانتساب إليه؟

-أن وعود الديمقراطية التشاركية والمزيد من الشفافية المعلومية ،وعود سريالية وغير واقعية ،فالبرغم من أن التكنولوجيا قد فتحت ثغرات واسعة في جدار الرقابة والمنع والتهميش وأحادية النقل للأخبار والمعلومات، إلا أن صناعة الأخبار والرأي العام وتحديد أجندة المشاهد، مازال قائما بحكم أن العملية تشترك في توجيهها المصالح السياسية والاقتصادية التقليدية ،« فالكليانية الاتصالاتية " تمر أكثر عبر قواعد لعبة تمزج الحركية

(1)- الصادق الحمامي الصادق الحمامي ،« المساءلة النظرية لمفهوم مجتمع المعلومات »، مرجع سبق ذكره ،ص13

التكنولوجية بتفجر الجسد الإعلامي إلى ذرات أفراد مستعبدين ومنهمكين في البحث عن إشباع رغبات فردية داخل السلعة» ((1)).

- دعاوى ورؤى تحول "الاتصال" إلى قيمة بحد ذاتها تؤسس "ليوتوبيا اجتماعية" شاملة لكل مجالات الحياة الشخصية والمؤسساتية والاجتماعية والسياسية والثقافية، رؤية غير بريئة تخفي وراءها انحسار الشرعية السياسية للنظم وتحجب أزمة القيم المتنامية وإنهيار قيم الحداثة منذ الثورة الفرنسية، ولذلك تنشغل الفلسفة الغربية ببحث آليات التحول من الحداثة إلى ما بعدها وما تنطوي عليه وكيفية إعادة بناء ايدولوجيا مناسبة له خصوصا بعد انهيار الإيديولوجيات التقليدية، ولذا يعتبر "فليب برتون" Philip Burtonأن: « هيمنة نموذج الإنسان الاتصالي ،مدخلا طوباويا جديدا تنظر من خلاله المجتمعات الغربية إلى نفسها ومستقبلها الذي ينتهي عند نموذج مجتمع الاتصال» ((2))، وهو ما يعتبر مغامرة ومغالطة بحد ذاتها ؛ إذ لا يمكن اختزال ظاهرة إنسانية بما تتضمنه من تعقد والصراعات والتناقضات الاجتماعية والخصوصيات الثقافية ،بتعميمات تقنية أداتية اعتبارها الخلاص والملاذ الذي تتلاشى فيه إشكالات التواصل التقليدي ، لذا يعتبر اريك نوفو Eric Nouveau أن« الاتصال ليس سوى قيمة تعبر عن فراغ إيديولوجي انتصرت لان القيم الأخرى انحسرت» ((3)) .

-خطاب الوفرة والتنوع وتعددية الاختيار :يلغي من حسبانه مسالة احتكار التكنولوجيا والمعلومات الإستراتيجية خصوصا تلك المتعلقة بتحديث المجتمعات والتنمية، بل إن الخطاب المناقض له يتحدث عن "الفجوة الرقمية" المتزايدة ،وفقراء وأغنياء المعلومات، ومجتمع الخمس...، ومراكز تحتكر الإنتاج وتترك إن لم تفرض على الهوامش الاستهلاك للمنتجات والخدمات الجديدة، وهي حركية تعكس في طياتها

---

(1)- يحي اليحياوي، **عن الأساطير المحددة لخطاب مجتمع الإعلام** ، [مرجع من الانترنت ،2008] ،انظر الرابط
http://www.elyahyaoui.org/liv_glob_com_culture.htm

(2)- Philippe Breton, **L'utopie de la communication**, Paris :édition La Découverte, 1995, p 85

(3)- اريك نوفو، **مجتمع الاتصال** ،نقلا عن الصادق لحمامي ،« المساءلة النظرية لمفهوم مجتمع المعلومات »، مرجع سبق ذكره ،ص17

امبريالية معلوماتية تحيل إلى تجربة المجتمع الصناعي وما ارتبط به من وعود تكشفت على صخرة الاستعمار والاستعباد والتبعية، وتقسيم العالم إلى مركز وهامش أو شمال غنى وجنوب فقير، و ربما يفتح هذا أمامنا مشروعية التساؤل عن ثمن الثورة الثالثة ؟ ما كلفتها المادية والرمزية؟ومن الذي سيدفع كلفتها ؟ ومن سيكون جامع ضرائبها؟ والتي يبدو أن العالم الثالث سيدفع مجددا لكن هذه المرة من طاقاته وعقوله المنتجة لهذه التكنولوجيا (البرامج ،الأجهزة...)وهو ما تعكسه حالة الاستقطاب الحاد للكفاءات والعقول من هذه الدول

ويحدد "دومنيك والتن" Dominique Walton خمسة تناقضات مركزية لمفهوم مجتمع الإعلام :

-**سلعنة المعلومات** :واعتبارها بضائع تباع وتشترى وارتباط التكنولوجيا بالنظام الاقتصادي الرأسمالي، وهو ما لا ينفيه الخطاب المتفائل بمجتمع المعلومات القائم على حرية الوصول إلى المعلومات وتقاسمها بعدالة

-**المسالة الاجتماعية** :وطبيعة العلاقات الاجتماعية التي تفرزها هذه التكنولوجيا والتي تعمل على التفتيت La démassification ،عكس وسائل الإعلام التقليدية التي ساهمت في تأسيس فضاء رمزي جماعي ونظام للوساطة الاجتماعية .

-**مسالة الوساطة الثقافية** Médiation culturel ،تشير إلى تحرر الفرد من كافة القيود الاجتماعية والمؤسساتية[نحو المزيد من الخصوصية والفردانية] ،في حين أن اجتماعية الإنسان تستوجب أن تتأس العلاقات الاجتماعية على وساطة بشرية ومؤسساتية (المدرسة، المسجد، الأسرة ...).

تصور هذه الخطابات المجال الاتصالي كفضاء للحرية الكاملة تختزلها صورة الإبحار وكان مستعمل الانترنت ذات تتلذذ بمتعة البحث والحصول على المعلومات ولا تخضع لإكراهات عديدة، [متغافلة حقيقة أن] عالم التكنولوجيا الحديثة تحكمه قوى مؤسساتية واقتصادية وتخضع هذه الحرية لتقنيات المراقبة الخفية ذات الأهداف السياسية والاقتصادية((1))، وفي العموم لاقت هذه الدعاوى انتقادات واسعة، غير

(1) -Dominique Wolton. **Il faut sauver la communication**, Ed. Flammarion, Paris, 2005, p. 80

أن كثافة الضخ الإعلامي والأكاديمي الذي صاحب الدعوة إلى تبني هذا المفهوم بهذا الشكل، جعلتها أصوات غير مسموعة وغير ذات تأثير كبير في هذا المسار.

خاتمة:

يتضح من خلال هذا العرض أن " مفهوم مجتمع الإعلام " يشوبه الكثير من الضبابية، وتحيط به إشكاليات متعددة، نتيجة عوامل متداخلة أهمها ما يتعلق بعدم الاتفاق على المصطلح في حد ذاته، وبعضها من إرهاصات الظهور الأولى حيث لا تكون الرؤية واضحة بخصوص طبيعة الظاهرة ومالأتها، وتتنازعها اتجاهات التأييد والمعارضة، كما أن هناك بعض الإشكالات المتعلقة بايديولوجيا خطاب مجتمع الإعلام في حد ذاته ؛حيث يتم الاعتراض على اعتبار الاتصال وحده القيمة العليا له .

وعلى الرغم من هذه الإشكالات إلا أن هذا المفهوم اخذ طريقه وموقعه في صلب الخطاب الأكاديمي والإعلامي والإداري والسياسي ...ويطرح كمفهوم "ناجز "غير قابل للمراجعة والنقد تحت أي ظرف .